مباهج الحياة

عنصر أصيل فى الإصلاح الاجتماعى

بقلم الأديب الأستاذ سيد قطب

هذا بحث طريف فى مباهج الحياة التى تنقص المجتمع المصرى . وقد استطاع الكاتب الفاضل أن يعين مكان الداء كما استطاع أن يصف الدواء فى رشاقة وفطنة وذكاء . ونحن نتحف قراءنا بهذا البحث الطلى الممتع الذى تغلب عليه روح الحظ والطيرة رجاء أن يجدوا فيه علاجا لحالة الكآبة العامة التى تغشى مجتمعنا المصرى "

المحرر

نحن فى حاجة الى حظ كبير من الفرح، لأننا فى حاجة الى حظ كبير من الحياة والى حظ كبير من سلامة الفطرة وصحة الشعور، وهما أكبر مقومات الحياة .

وحظنا نحن المصريين من الحياة الحقيقية ضئيل ، لأن حظنا من الفرح ومن المباهج الفردية والاجتماعية ضئيل .

وإنما يصح هذا القياس، لأن الفرح الانسانى ظاهرة نفسية وعقلية تقابل فى الحيوان ظاهرة القفز والوثب ، وفى الطير ظاهرة السقسقة والغناء ، وفى النبات ظاهرة التفتح والازدهار، وهذه الظواهر جميعا دليل الحيوية والصحة فى الأحياء .

* * *

ولكن أى أنواع الفرح نحن فى حاجة اليه ؟

انه لا يعنينا الفرح الحيوانى الذى مظهره التهريج، ولا فرح اليأس الذى مظهره المجون . وإنما أسمينا هاتين الظاهرتين فرحا من قبيل التجوز فى التعبير . فالفرح — كما قلت — ظاهرة نفسية وعقلية . وبهذا يخرج من الحساب ذلك التهريج الظاهر فى حياتنا العامة ،

كما يخرج من الحساب ذلك المجون الظاهر فى حياتنا الفردية ، لأن عمـل النفس والعقل فيهما ضئيل ، ولأنهما يختلفان فى مبعثهما اختلافا جوهريا عن مبعث الفـرح الصحيح ، وينبعان من منبع أبعد ما يكون عن نبعه الرائق المعين .

ينبع الفرح الانسانى من الطلاقة والتحرر من قيود الحاجة والضرورة ، هذه القيود التى تقرب الانسان من الحيوان فى خضوعه للضرورات ، وينبعث من الشعور بالاكتفاء وبعنصر زائد عن هـذا الاكتفاء ، وهو الفضلة المدخرة من القوى الداخلية فى النفس بعد أن ينفق منها الفرد أو الجماعة ما يقوم بالحاجات والضرورات .

فمن أين ينبع التهريج وينبعث المجون ؟

ينبع التهريج فى حياتنا وحياة الشعوب والأفراد من منبع الضغط على اختلاف ألوانه ، لا من منبع الحرية ، فهو ثمرة للكبت لا للطلاقة . وينبعث المجون سخطا على الحياة لا رضى عنهـا ، واستهانة بها لا اعتزازا بقيمتها ، واصغارا لشأن الكون لا إكبارا لمـا فيه من متعة أو جمـال .

* * *

نحن فى حاجة اذن الى حظ من الفرح الانسانى الراقى ، لأننـا فى حاجة الى حظ من الحياة الصادقة والفطرة السليمة .

ولكن أهذا كل ما ينقصنا من ألوان الفرح ؟

الواقع أن حظنا كذلك ضئيل حتى من الفرح الحيوانى الذى يدل على سلامة البنية وصحة الشعور واكتفاء الروح . والحرمان من هذا اللون ربمـا كان أخطر وأوغل فى العلة ، لأننا بهذا الوضع لا نرتقى فى سلم الصحة حتى إلى مرتبة الحيوان !

* * *

والآن . ليسأل كل منا نفسه : كم مرة يضحك فى اليوم أو الأسبوع أو الشهر ضحكة مشرقة مبعثها الشعور بالفيض النفسى الزاخر وبالطلاقة الحرة والتخفف من قيود الحياة ؟

بل ليسأل نفسه : كم مرة يضحك فى اليوم أو الأسبوع أو الشهر ، ضحكة مبعثها الحيوية الجسمية والشعور براحة البدن واكتفائه وخلوه من العوائق والمنغصات ؟

ثم تعالوا ندخل البيت المصرى فى المدينة ، فماذا نحن واجدون فيه من مباهج الحياة المنزلية ، ومن مظاهر المرح المشتركة ، بل من مظاهر المشاركة الوجدانية فى أبسط صورها بين أفراد المنزل الواحد ؟

ولنذهب الى الريف الحزين المظلم الأرجاء ولنبحث عن مظاهر الفرح هناك : فى أى مكان . أنحن واجدون منها شيئا ولا سيما فى هذا الزمان . ؟

لقد كانت للريف المصرى مباهج كثيرة قبل نصف قرن ، ولقد بقى منها أثر الى ربع قرن ، وكان أهمها حفلات سباق الخيل ولعب العصا ، ومواسم الحصاد ، كما كان الريف يجد له متنفسا فى ليالى رمضان الساهرة وفى الموالد المنيرة . أما اليوم فقد طمس الفقر والإعياء على كل مظاهر الابتهاج .

ثم لننظر بعد المدى بين مباهج عيد الميلاد وعيد رأس السنة الميلادية عند القلة القليلة من الأجانب الحالين فى ديارنا و بين مباهج أعيادنا التى تشترك فيها الملايين ، ان صح ان هناك مباهج فى هذه الأعياد .

ولنوازن بين مباهج الحياة المنزلية فى البيوت القليلة المتناثرة بيننا للنزلاء و بين ذلك الكمد المكتوم ، والنفرة الموحشة فى أرجاء بيوتنا المصرية الكئيبة .

اننا نقضى أعيادنا على المقاهى نتطلع فى شبه ذهول للرائحات والغاديات . والعيد القومى الوحيد الذى نحاول أن نبتهج به وهو عيد الربيع "شم النسم" نهبط فيه الى الاستهتار الماجن لأننا لم نعرف بعد كيف نفرح فرح الآدميين .

ان هؤلاء الافرنج يفرحون كثيرا لأنهم يعملون كثيرا و ينتجون كثيرا و يشعرون بقيمة الحياة فيتطلعون الى مثل عليا تملأ فراغها وترفع مستواها و يحققون كثيرا من هذه المثل . . فيفرحون أما نحن فلا نفرح لأننا لا نعمل ، واذا عملنا فبغير حمية ولا إقبال ولغير ما غاية مرسومة ولا ايمان بالحياة .

وكما يصح هذا القول وذاك يصح حكمهما تماما : فهم يعملون بجد لأنهم يفرحون ، ونحن نعمل فى سأم لأننا مكتئبون .

و يوم نعرف كيف نفرح فرحا حقيقيا سنعرف كذلك كيف نعمل عملا جديا فندرك يومئذ قيمة الحياة ولذة الطموح .

لهذه الكآبة الفاشية فى مصر أسباب كثيرة أهمها : الوراثة التاريخية وسوء فهم التعاليم الدينية ، وفقدان الاستقلال حقبة طويلة ، ومحطة الاذاعة اللاسلكية ، والفقر والظلام ، واحتجاب المرأة الفاضلة عن المجتمع المصرى ، وطابع الحزن الذى يغلب على الحاننا وأغانينا والتفكك العائلى والاجتماعى ونقص وسائل التسلية .

وبعض هذه الأسباب لا حيلة لنا فيه ، ولكن بعضها من صنع أيدينا وفى استطاعتنا إزالته أو تخفيفه ، فلنأخذ فى شرح هذه الأسباب شرحا مختصرا إذ كان الحديث المفصل يستغرق رسالة مطولة ، لا فصلا فى مجلة .

* * *

الميل الى الحزن والاسترسال فيه ظاهرة بارزة فى حياة مصر القديمة ، فالتفجع على الموتى وطول مدة الحزن وشناعة مظاهره وبروز معالم الحداد ، كل هذه حالات ملموسة فى حياة أجدادنا زمن الفراعنة وقد ورثناها عنهم ولا زلنا نعلك هذه الأحزان فى الريف علكا كلما مات لنا عزيز ، ونستعين بالنادبات على إذكاء الناوحة والأسى فى النفوس ، ونبالغ فى لبس السواد ونحافظ على كل ما يذكرنا بأننا فى محزنة وفى كل ما يسبغ علينا لباس الشجن والكآبة كأننا راغبون رغبة مقصودة فى هذا الشعور .

ثم نعود الى احتفالات القدماء بالاعياد والمواسم ، والى أغانيهم فى هذه الاحتفالات ، فنرى أنهم يحرصون على تذكر الموت والموتى كلما استخفتهم عوامل الفرح أو خافوا أن يستخفهم ، فمع عظمة الاحتفال بالحياة فى "طيبة الأحياء" إبان الاعياد لم يكونوا ينسون أن يحتفلوا عقبها بالموت فى "طيبة الأموات" على الضفة الأخرى للنيل ، وهكذا كانت أناشيدهم بالفرح ، لا تخلو من شارة للموت ومن طابع للحزن .

وها نحن أولاء على ستتهم نزور موتانا فى الأعياد ونحيى أول أيام العيد بين القبور !

وما من شك أن لهذه الوراثة أثرها فى اكتئابنا الخفى الذى قد تخفيه ضحكة الاستهتار أو ضحكة التسلية التى نراها فى الوجوه فنحسبها تنبع من منبع الفرح الأصيل .

ولكنا أسوأ حالا من القدماء ، فقد كان لهم من العزة القومية ومن قوة النشوء ما يجعل فرحهم ولو فى ساعات قصيرة فرحا حقيقيا ، أما نحن فقد ورثنا الكآبة ولم نرث الشق الآخر فى حياة القدماء .

* * *

ومصر الاسلامية التى قامت على مصر الفرعونية لم تنس أديانها وتقاليدها القديمة وقد اندس الكثير من القديم فى الجديد وضاع فى طياته ، ولكنه ترك أثرا بارزا ، ومن هنا أسأنا فهم بعض التعاليم الدينية الاسلامية متأثرين بطبيعتنا الأصلية واخترنا منها ما يناسب هوى هذه الطبيعة ، مغفلين الجانب الآخر من تلك التعاليم .

فالدين فى وهمنا لا يناسب المرح والبهجة ، ولا يتفق مع الاحتفال بالحياة والتهيؤ لها والاعتداد بها . ولكننا لا نلق بالا الى قول القرآن " ولا تنس نصيبك من الدنيا " وقوله " يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد " .

وما كان للقرآن ، وهو دستور اجتماعى للحياة أولا وقبل كل شىء ؛ أن يغفل مثل هذه الدعوة إلى التمتع بالحياة والاحتفال بزينتها بجانب دعوته إلى عدم الاسراف فى الاعتداد بها . لأن أهم ظاهرة فى الاسلام هى الاعتدال والموازنة بين العناصر المختلفة الضرورية للحياة الفاضلة .

على أن الإسلام ليس دينا جامدا ، إنما هو دين مرن يحتمل السير به فى مختلف الأحوال . فاذا كان هذا الدين فى نشأته قد واجه قوما يعتزون بآبائهم واجدادهم و يتفاخرون بأموالهم ووجاهتهم فأصغر من شأن هذه المظاهر ، ودعا دعوته إلى تصغير الحياة الدنيا ليوجد الاعتدال والاتزان فى نفوسهم ، و يهيئها للخير والهدى الذى جاءهم به فنحن اليوم فى دور قد استهنا فيه بالحياة وأصغرنا قيمتها ، فأصبحنا بحاجة إلى قسط كبير من احترامها لنرتفع بها عن مستوى الاستهتار الذى نلج فيه ، ولنقوى أنفسنا فى عصر القوة و إلا فماذا يدعونا إلى العمل والجهد إذا احتقرنا الحياة واستصغرنا شأنها ؟

وهذه تبعة ثقيلة ملقاة على عاتق رجال الدين وعلى الوعاظ منهم بشكل خاص ، فساهم يغيرون نغمة الأسى المصطنع ، و ينسون مؤقتا ازدراء الحياة والحط من شأنها فى هذه الظروف .

ومتى أحببنا الحياة واحترمناها وجدنا فى نفوسنا عناصر كثيرة للفرح الانسانى الأصيل .

* *

ولم تكن الوراثة التاريخية والتقاليد لتترك مثل هذا الأثر العميق فى نفوسنا ؛ لو لم تهن الحياة علينا لسببين أساسيين ، هما فقدان الاستقلال ردحا طويلا من الزمان ، وسوء الحكم الذى ترتب على هذا الفقدان . فلقد كان الأول آفة العزة القومية ، وكان الثانى آفة العزة الفردية ، ومتى ساب الانسان نعمة الشعور بهاتين العزتين فقد ساب نعمة الحياة الطليقة وانحط مستواه النفسى إلى ما يقرب من عالم الحيوان .

ومتى قلنا إن الفرح الانسانى ينبع من الطلاقة والتحرر من القيود ، أدركنا ما يبقى للمصرى من هذا الفرح بعد أن يذكر أنه فقد احترامه الدولى واحترامه الفردى حقبا طويلا من الزمان . وقد نبعت النكتة المصرية المشهورة من منبع الكبت والضغط ، للتنفيس والترويح عن النفس المكبوتة من كل جانب ، وكانت فى أحيان كثيرة نوعا من المقاومة للحكام ، إذ كان الشعب المغلوب على أمره يتسلى بتوجيه النكات إلى حكامه ، ويرضى نفسه بعض الارضاء بهذه المقاومة المأمونة .

فليست النكتة المصرية إذن إلا مظهرا للكمد المكتوم لا للفرح الطليق .

والآن وقد زال هذان السببان — والحمد لله — فيجب أن نجتهد فى تمكين الاعتزاز بالاستقلال والحرية الشخصية ما استطعنا ، لنستطيع أن نحيى هذه النفوس الذابلة ، ونطلقها تمرح مرح الأحرار من الآدميين .

* * *

ولقد ساعد هذه العوامل المتقدمة ومكن لها عامل آخر أشمل منها جميعا ذلك هو الفقر الذى ينوء به كاهل ثمانين فى المائة على الأقل من أفراد الشعب ولن يجتمع الفقر والفرح رغم كل ما يحاول الشعراء أن يتخيلوه من سعادة فى حياة الفقراء .

الفقر كمد وحزن ومدعاة إلى الكمد والحزن . هذه حقيقة لا سبيل إلى المكابرة فيها ، ولن يستطيع الفقير أن يخلو إلى الفرح وهو جائع مريض مكدود ، فالحيوان نفسه لا يرتع أو يقفز وبطنه خواء .

فكل محاولة لإغناء هذا الشعب ومقاومة حدة هذا الفقر الاسود الذى يغشاه هى محاولة فى بث عوامل الفرح فى النفوس ومقاومة هذه الكآبة الغاشية .

وتتصل بالفقر فى الريف أو تنشأ عنه ظاهرة الظلام . فالانارة فى القرية المصرية ضعيفة جدا أو هى فى حكم العدم سواء فى المنازل أو الطرقات ، إذ تخيم الظلمة الحالكة منذ غروب الشمس ، بل تسدل حجابها على كثير من المنازل قبل غروبها نظرا لقلة النوافذ فى هذه الكهوف التى يأوى اليها الأحياء كالأموات .

وقد لا يلتفت الكثيرون إلى علاقة النور بالحالات النفسية ؛ ولكن العلاقة مع هذا أوضح من أن تذكر ، فالنور من الناحية الفيسيولوجية ينبه خلايا الجسم وينشطه ، والضحك ظاهرة من ظواهر النشاط النفسى والجسدى بطبيعة الحال .

هذه الظلمة التى تخيم على الريف تحمل فى طياتها الكآبة وشعور الانقباض والانكماش ، فإذا انفرجت قليلا فى أيام رمضان وفى الموالد والأفراح التى يكثر فيها النور وتوقد المصابيح الكبيرة ، انطلق الأطفال يتنقلون فى القرية وانفرجت أسارير هم ، وتغيرت حالتهم النفسية تغيرا محسوسا .

فلتحاول الحكومة أن تنشر النور فى القرية وأن تبدد هذه الظلمة قدر ما تستطيع بوضع مصابيح البترول الكبيرة فى الشوارع . وكل مبلغ تنفقه فى هذا السبيل لن يضيع هباء ، لأنه سيدخل السرور والنشاط على نفوس الملايين .

ومامن شك فى أن الحكومة تعلم أن هذا النور يقلل من الجرائم و يعوضها اضعاف ماستنفقه من قروش .

* * *

وسيعجب الكثيرون — ولعلهم سيضحكون أيضا — حين اقول لهم أن محطة الإذاعة اللاسلكية جاءت سببا من أسباب الغم والكآبة فى الحياة المصرية ؛ فأنا أفسر لهم هذا اللغز العجيب .

كان لاحتجاب المرأة أثره فى الأغانى والموسيقى المصرية . وكان أثرا سيئا ولا ريب ، فقد عادت الموسيقى وعاد الغناء ترديدا لصوت الغريزة الحبيس ، ونداء للحس المكبوت . و ياليته بقى نداء الحيوان السليم للحيوان السليم ، بل انحط الى درجة النداء الجنسى المريض المهزول المصطنع الذى ينقصه حتى جمال الصدق فى تصوير غريزة الحيوان السليم .

وكان هذا الشر قاصرا على حفلات الغناء ، وعلى الاسطوانات يذيعها الحاكى فى دائرة ضيقة ، فلما أنشئت محطة الإذاعة وصل النداء الى كل بيت وكل سمع ، وتعالت أنات المرضى التى يذيعها المطربون وتذيعها المطربات فوصلت الى كل حجرة وكل أذن ، وتغنى بها الجميع فزادتهم مرضا على ماهم فيه من توعك واضمحلال .

ليس لدينا قطعة موسيقية واحدة ولا أغنية مصرية واحدة حتى اليوم تحمل طابع الصحة وترتفع عن نداء الجنس المريض .

وأكثر من ذلك أنه ليس لدينا حنجرة واحدة مستعدة لإخراج نبرة الفرح أو نبرة النشاط والصحة إذا عزت علينا نبرة السمو والتحليق ، ولم يبق عندنا من المغنين من يصلح لترديد نغمة واحدة من نغمات الإحساس السليم . وطالما شكونا التأليف والتلحين ، ولكننا لم نلتفت الى ظاهرة عجيبة فى أصوات مطربينا ومطرباتنا وهى أن حناجرهم وحناجرهن لم تعد صالحة إلا لإخراج النبرة الكئيبة والصوت الحزين .

وأشد مالاحظت هذا فى الأغانى الوطنية التى رجت فى هذه الأيام ، وفى أناشيد أفراح الزفاف الملكية وأناشيد الأعياد . فالألفاظ والمعانى فى الأولى قوية صاخبة ، وفى الثانية ضاحكة باسمة ، ولكنها خرجت من حناجر المطربين والمطربات ميتة هامدة حزينة ، تقطر منها الدموع وتشيع فيها الأنات ويطل منها الوجع الدفين .

وهذه نكبة على روح الفرح والبشر لأن الموسيقى والغناء يفعلان فى الكيان النفسى مالا تفعله جميع التعاليم .

* * *

وننتقل الآن الى سبب كامن فى بيوتنا ومجتمعاتنا ، ذلك هو التفكك الملحوظ بين أفراد الأسرة الواحدة وبين أفراد الأمة كلها . وساعة واحدة يقضيها المرء فى بيت افرنجى يراقب عواطف الحب والمودة الواضحة بين أفراد البيت الواحد ، ويلاحظ مظاهر المشاركة الوجدانية واجتهاد كل فرد أن يدخل السرور على نفوس الآخرين بحكاية أو لعبة أو حركة ساعة واحدة تكفيه لإدراك ماقد حرمنا منه فى بيوتنا . هذه البيوت المتفرقة الأجزاء المفككة الأوصال التى يهرب الكثيرون منها الى القهوة والنادى هروب اليائسين .

فإذا عدونا البيت الى المجتمع راعنا ذلك الانحلال وهذا التفلت من الأواصر الاجتماعية وظهور الأحاسيس الفردية على أحاسيس الجماعة . ولست أرى أن هذه مشكلة سهلة الحل فليحاول كل فرد منا أن يكون مبشرا فى بيته بتعاليم الأسرة الجديدة ؛ ولنختلط بالأفرنج مااستطعنا ، ولنقرأ ما كتب فى لغاتهم من وصف للبيت الافرنجى ومباهجه ، ثم لنحاول فى صبر طويل محاكاتهم فى إحياء بيوتنا وبث روح الفرح والنشاط والبهجة بين جدرانها ، ولعلنا نوفق بعد عمر طويل .

ومامن شك أن وسائل التسلية فى المجتمع منقوصة نقصانها فى البيت ، وما دمنا فى طور نعتمد على الحكومة فيه اعتمادا كبيرا ، فلتحاول الحكومة ممثلة فى وزارة الشؤون الاجتماعية أن تخلق وتنظم كثيرا من المواسم والمهرجانات الفرحة النشيطة . ولتضف الى الاحتفال بالمولد والمحمل ووفاء النيل الاحتفال بمواسم أخرى ، فلتحتفل بعيد الربيع (شم النسيم) وبموسم الحصاد ، وموسم جمع القطن على مثال ما تصنع بعض الممالك الأوربية . ولتقم مسابقات كثيرة للزوارق ومعارض الزهور .

ولتقم الى جانب وزارة الشؤون الاجتماعية هيئات أخرى و لجان تجعل من همها الإكثار من المباهج الاجتماعية والتجديد فيها والابتكار فى كل مناسبة من مناسبات العام . حيث يتاح الاشتراك فيها لأكبر عدد ممكن من الشعب المحروم .

ولنذكر دائما أن كل ابتسامة ترف على الشفاه ، وكل ضحكة ترن بها الحناجر ، إنما هى قطرات من الدم النقى فى عروق الأمة وصيحات الى العمل المنتج ودعوات الى السمو والطموح .

سيد قطب

— الحق كبير فلا تصغروه بالصغائر .

— الأمية شلل الأمم ، الناس معها مقعدون و إن خيل إليك أنهم يعدون .

— اعتراف الخاطئات استبسال ، وفرار من الاسترسال ، فانتشلوهن بعفوكم وأحيطوا ضعفهن من حلمكم بقوة .

— خف اليائس فإنه لايخاف .

— الخير فيه ثوابه و إن أبطأ ، والشر فيه عقابه وقلما أخطأ .

— أبى الله أن يتساوى عباده إلا فى النوم والموت .

— الأعمى من يرى بغير عينه ، والأصم من يسمع بغير أذنه .

— لاسلطان على الذوق فيما يحب و يكره .

— أصدقاء السياسة أعداء عند الرياسة .

— اخدع من شئت إلا التاريخ .

" من أسواق الذهب لشوقى "